مشاهد من قصة لم تكتمل . .[*]

الأخ نبيل شبيب

(٣)

إلى أين ؟

إلى أين أنتم ماضون أيها المشرّدون وعيون اليهود تتابع خطاكم الثقيلة البطيئة ؟ ..

هل هذه أولى هجراتكم ؟ .. أتكون خاتمة ترحالكم ؟

أليس بينكم أحد من أبناء عكا وحيفا ويافا .. يهاجرون مرّة كل عشرة أعوام ، وينتظرون في كلّ مرة العـــودة والنصر ويعدّون الأيام ؟ ..

إلى أين .. وأبناء صهيون يحيطون بكم ، ويتبعونكم أينما مضيتم ما بين الفرات والنيل ؟ ..

مئات الشيوخ يسيرون وسط الغبار ، يحملون بعض المتاع على ظهورهم وثقل النكبات على صـــدورهم أشـــدّ وأكبر

مئات النساء يحتضنّ أطفالهنّ مثلك يا سمية على الطريق الطويل ، والخوف في عيونهنّ أن ينتزعهم المـــوت مـــن أيديهن كما انتزع الآباء والإخوة من قبل ..

جميعهن مثلك يا سميّة

تحملين طفلاً على ذراعك وتفكرين بآخر كنت تحملينه صغيراً ، ترضعينه الإيمان ، وتربّينه على حـــبّ الجهـــاد وتزرعين في قلبه الأمل بنصر قريب ..

هل كنت تحسبين أن تتركيه يوماً في أرض احتلّها اليهود ؟ ..

هل ترينه في الحياة الدنيا أم يكون له موعد مع أبيه ؟ ..

(*) نشر المشهد الأوّل بعنوان (مع الأذان) في العدد ٤٥ والمشهد الثاني بعنوان (ياسر وأمه) في العدد ٤٨ من الرائد

صبراً يا سمية .. هيهات تنسين ما كنت تتحدّثين عنه لسواك

ليس الجهاد كلاماً يقال باللسان بل هو بالصبر يوم الجهاد .. ليس الإيمان حديثاً تدعين به أخواتك إلى الإيمـــان ، بل هو ذاك الذي تعيشينه وتشهدينه الآن .. مع النكبات

تدمع العينان يا سمية والقلب ثابت لا أثر للشك فيه وإن لم يكن لقاء في الدنيا فغداً اللقاء في الجنّـــة .. تتخـــاذل القدمان يا سمية والصدر ينبض باليقين بالله وبوعده الله ، النصر أو الجنّة

لست وحدك يا سميّة على الطريق الطويل

كم من الأرامل معك خلّفن الأزواج الشهداء

كم من الأمهات معك تركن الأبناء المجاهدين

كم من الأطفال تحملهم أيدٍ كيديك تخشي عليهم وتضمهم صدور كصدرك لجأت إلى الله بالدعاء

أهو الرضاء بقضاء الله يدفعك إلى هذا الصمت العميق ؟

أم هي الثقة بوعد الله تدفعك إلى هذا الصمت الكبير ؟

وأية مشاهد سرح بصرك إليها يا سمية ؟

أهي مشاهد الشهداء وراءك أم مشاهد اللاجئين حولك وأمامك ، أم هي مشاهد ركب الإيمان الذي خرج يوماً من مكة إلى المدينة مهاجراً من أعداء الله إلى أنصار الله ، أم هي مشاهد ركب الإيمان الذي عاد يوماً من المدينـــة إلى مكة يحمل النصر لدين الله ؟ ..

– لقد تجاوزنا الأرضَ المحتلة

وأفاقت من أفكارها على صوت أبي عبيدة ، وتلفتت حولها فرأت مجموع اللاجئين في الطريق الطويل تسير باتجاه السيارات الكبيرة الواقفة بعيداً ، ونظرت وراءها فرأت جنود اليهود مدجّجين بأسلحتهم متأهبين كـــأنهم يريـــدون إطلاق النار على السائرين بخطى ضعيفة واهنة .. فقالت لأبي عبيدة وزوجه :

– إلى أين نمضي ؟

– إلى تلك السيارات تقلّنا إلى عمان .. ومن هناك نسافر إلى المدينة المنوّرة إن شاء الله ..

وعادت إلى صمتها والوقت يمضي ثقيلاً بطيئاً ، تنظر إلى طارق بين يديها حيناً بعد حين وتدمع عيناهـــا وهـــي تذكر ياسر فيلهج قلبها بالدعاء

واستقرّ بهم الجلوس في السيارة أخيراً ، ومضى زمن طويل قبل أن تقول لصاحبتها :

– هل تعرفين أحداً في المدينة ؟ ..

ومدّ أبو عبيدة رأسه من المقعد الخلفيّ يقول :

– أعرف عدداً من الإخوة وسنتّصل بهم حال وصولنا إن شاء الله

ولاذت بالصمت فقالت لها عائشة :

– يعلم الله يا سمية ، إنني لأغبطك على ما أنت عليه ، واعذريني أن أقول ذلك فو الله لقد تمنيت لو كان لي أولاد يجاهدون في سبيل الله

– لست أدري يا عائشة ، كنت أدرك منذ حدّثني ياسر بسفري إلى المدينة أنّني سأتركه وحده ، ويطمئنني بقاؤه في منـــزل حسان بعض الطمأنينة ، لكنّ ذلك لم يكن هيّنا

– أقول لك الحق ، رغم ثقتنا الكبيرة بك لم نكن نتوقع أن تقبلي طلبه بالبقاء

وشدّت سميّة ذراعيها على طارق وهي تقول :

– والله لو أنّ أخاه في سنّه لتركته معه .. رحم الله أبا ياسر وغفر له ، لو منعت ابنه عن الجهاد الآن لشعرت أنني تنكّرت لذكراه وما حفظت عهده ، ماذا بقي لنا يا عائشة ؟ .. لقد احتلّوا الأرض ، وهدّموا المساجد والمنازل ونهبوا الديار والأموال .. فعلام بقاؤنا أحياء ؟ .. وكيف نواجه الله يوم القيامة إن حبسنا أبناءنا أو أزواجنا عن الجهاد ؟ .. ومن يجاهد اليهود إذن ؟ ..

والتقطت أنفاسها ، واستجمعت قوتها كيوم كانت تجلس مع أخواتها تحدّثهن عن الإيمان والإسلام وتحثهن علـــى طاعة الله واجتناب نواهيه ، فتابعت تقول كأنها في مجلسها ذاك قد نسيت ما حولها :

– والله يا عائشة ما كان لليهود أن يصلوا إلى ما وصلوا إليه لو كنّا نحن النساء قد ربّينا أولادنا على ممارسة الجهاد ، واليهود –رغم جهودهم الكبيرة– لا يزال عددهم في أرضنا دون ٤ ملايين ، والعرب وحدهم أكثر من مائة وخمسين مليونا .. فهل كان يمكن أن يحدث ما حدث لو أن أربعة ملايين من أبناء العرب والمسلمين فقط قد رُبّوا على الجهاد فوقفوا في وجه اليهود ؟

ألم نتحدث في لقاءاتنا عن الجهاد في سبيل الله لنطرد اليهود من الأراضي التي احتلوها من قبل ؟ فكيف نصدق الله فيما نقول –واليهود يحتلون المزيد من أراضينا– ما لم نبذل كلّ ما نملك في جهادهم ؟

لقد تمنيت لو استطعت قبل سفري لو أمرّ بكل منزل في البلدة فأحدّث أمهات المسلمين أن يدفعن بأولادهن وأزواجهن إلى القتال ، وما غادرت مدينتنا وتركت ياسر فيها إلاّ بعد أن عقدت العزم على فعل ذلك في أي بلد مسلم حللت فيه

وتابعت حديثها وعائشة تصغي إليها وتنظر بلهفة إلى نور الإيمان متوقّداً في عينيها ، وأبو عبيدة يمدّ رأسه يسمع ما تقول :

إنّي لأذكر يا عائشة أيامي الأولى مع أبي ياسر رحمه الله .. كنت لا أعرف من الإسلام إلاّ القشور ، أصلي وأصوم لأنّني نشأت على ذلك ، وأضع الحجاب لأن أسرتي تضع نساؤها الحجاب ، وكنّا نعيش في ظروف قاسية أشدّ منها اليوم .. كانوا يريدون سوق المرأة المسلمة سَوْقاً لتتخلى عن دينها ويحدّثونها عن حقوقها وحريتها وهم يريدون فسقها وفجورها ، يفتحون لها أبواب المغريات على الدنيا ويمنعون عنها أدنى المعرفة بإسلامها وتاريخ أمتها .. وكان صبوراً رفيقاً ، يأخذ بيدي خطوة خطوة ، حتى لمست معنى الحياة بنفسي ، شعرت بمكانتي كامرأة مسلمة ، وأدركت دوري في خدمة ديني وأقبلت على تعلّمه كأنني أقرأ القرآن للمرة الأولى ، وأعبد الله كما لم أعبده من قبل ، وأيقنت أنني ما لم أنتقل بنفسي وأخوتي من الحديث إلى التطبيق ، ومن الكلام إلى العمل فلست بالصادقة في إسلامها ولا المخلصة في عبادتها ..

نعم قد كان طريقنا صعباً وما يزال ، وقمنا ببعض واجبنا وأمامنا بعد الكثير .. لم نصبح يا عائشة جديرين بنصر الله بعد وإلاّ لأتانا النصر ، و لم نبلغ ما يريده الإسلام لنا بعد وإلاّ لعادت للمسلمين عزتهم في الدنيا قبل الآخرة ..

لئن لم نبذل المزيد اليوم فيعلم الله ما يكون عليه حال بلادنا وأمتنا غداً ويعلم الله كيف يكون حسابنا بين يديه يوم القيامة ..

ألا نقصّر في كثير من واجباتنا وأعمالنا ؟ .. علام ننتظر الكارثة بعد الكارثة فنفقد فيها أضعاف ما كان يمكن أن نضحي به لنتجنبها ؟ وإلى متى نقول إنّ حكوماتنا وحدها المسؤولة عن الكوارث ؟ ألسنا نشاركها المسؤولية إن نحن

قصّرنا في واجباتنا كما تقصّر ؟ .. نعم نحن على الطريق يا عائشة لكنّ الطريق طويل وجهدنا قليلٌ قليل ، ولا يبقـــى أمامنا إلاّ الأمل بالله ، وإنّه لأملٌ عظيم . والله إنّني لأرى في وجوه هذه الأمهات المهاجرات بأطفالهن نـــوراً يبـــشر بنصر الله ، وما لم يسترجع المسلمون عزّتهم بالإسلام في جيلنا هذا فسيسترجعها هؤلاء الأطفال يوماً ما بـــإذن الله ، ولئن تنكّبنا عن الطريق اليوم فليست الخسارة للإسلام الذي وعد الله بحفظه ، بل لنا نحن .. إلاّ مـــن صـــدق الله في عمله فلقيه راضياً عنه

وسكتت سمية وقد أجهدها الحديث ، وبقيت عائشة تنظر إليها كأنها تريد سماع المزيد .. واستمرت السيارة على سرعتها لا يقطع الصمت الذي ران على ركابها إلاّ بكاء الأطفال وأصوات أمهاتهم يحاولن إسكاتهم ببعض الحديث أو الطعام ..